

النقد الثقافي عند العرب

مديحة عتيق
أستاذة محاضرة
قسم اللغة وآدابها
المركز الجامعي سوق أهراس

الملخص

النقد الثقافي أو الدراسات الثقافية حقل أكاديمي جديد، ترعرع في أحضان النظرية النقدية والماركسية، ويهتم عموماً بالطبيعة السياسية للثقافة المعاصرة، وبإشكالاتها وصراعاتها الماضية، وتهدف هذه المداخلة إلى تسليط الضوء على خلفيات هذه الحقل النظرية، وذكر أهم رواده، وموقف النقاد العرب منه. وركزت المداخلة على بعض أعلام النقد الثقافي العرب وخاصة عبد الله الغدامي في كتابه "النقد الثقافي" الذي أثار ردوداً عربية واسعة، تقف المداخلة عند أهم نظريات هذا الكتاب ومصطلحاته وتطبيقاته

الكلمات المفتاحية: النقد الثقافي - الماركسية - النسق - الثقافة - الميديا - كتابات المرأة - أدب الملونين. الهامشية...

Cultural Studies and Arab critics

Dr. Madiha Atik

Abstract

Cultural studies is an academic field grounded in critical theory and Marxist literary criticism. It generally concerns the political nature of contemporary culture, as well as its past historical precedents, conflicts, and issues.

The paper is an attempt to shed light on Cultural Studies' theoretical background, first pioneers, and some Arab figures in this field. Alghadami's "The cultural Criticism" is a masterpiece in this branch of literary criticism. The paper will focus on the most important theories, terms, keywords in this study.

ما الثقافة ؟

لا يزال الجدل قائماً، سواء لدى الغرب أم عندنا نحن العرب حول خطوط الانفصال ونقاط التقاطع بين النقد الثقافي والدراسات الثقافية، يجمع بينها البعض، ويفرق بينها البعض الآخر، ويعتبر أحدهما احتواء للآخر لدى فريق ثالث.

ولعلّ أول ما يصعب عملية التعريف، ووضع الفروقات أو مبررات التقاطع والتوحيد بين المصطلحين هو مصطلح الثقافة في حدّ ذاتها الذي يبدو من أكثر المصطلحات بدهاة وغموضاً في آن واحد، وهذا ما جعل مؤلفي دليل الناقد الأدبي يحجمان عن وضع تعريف لها لأنها أجلّ وأعقد من ذلك فيقرّان بأن "تعريف مفهوم الثقافة كان أصعب ما واجهته الدراسات، فقد دخلت المفردة والمفهوم المعجم الانجليزي في حقبة الثروة الصناعية، وتأرجح مفهوم الثقافة تبعاً للعلاقة التي تربطه بفكر معيّن فإذا كان انتماءه إلى علم الانتروبولوجيا فإنه يختلف عما إذا انتمى إلى الفكر البنوي أو ما بعد البنوي، والثقافة لا تستعصي على التعريف فحسب وإنما تجعل التعريف ذاته انعكاساً مؤسسا (بالفتح والكسر معاً) للبنية الثقافية ذاتها وهذا شأن الثقافة بوصفها مؤسسة متخصصة تفرز آلياتها الخاصة، وهي آليات تجعل من ديمومة الثقافة الخاصة أمراً حتمياً"¹

لا يعاني الأكاديميون وحدهم من زئبقية مفهوم الثقافة بل انتقل هذا القلق إلى الحياة اليومية، فما معني أن تقول عن فلان أنه إنسان مثقف ؟ هل هو الجامعي؟ أم الذي لديه شهادة علمية راقية؟ أم الذي لديه معلومات كثيرة ويحسن الحديث في أطراف السياسة والفن والتاريخ والجغرافيا؟ وما معني نشاطات ثقافية، وبرامج ثقافية أهي معارض الكتاب أم حفلات الرقص والباليه؟

لذا كان أول اهتمامات النقاد الثقافيين توسيع مفهوم الثقافة أوبالأحرى تخطي الحدود الرسمية بين الثقافة الأكاديمية وثقافة الجماهير وتوضيح الأسباب السياسية/السلطوية التي جعلت من منتج ثقافي معيّن "مركزياً" ومنتج آخر هامشياً/شعبياً، واستدل النقاد الثقافيون على سيسنة التراتيبات الثقافية بمسرحيات شكسبير التي تعد الآن في نظرنا ثقافة كلاسيكية بامتياز فقد تبين "أنّ بعض مسرحيات شكسبير التاريخية جاءت إلى الوجود كعمل شعبي يستمتع به العمال، ثم أصبحت بعد ذلك عملاً مسرحياً منتزعا إلى الفن الرفيع ليتمتع بها فقط المتعلمون، ثم آلت في فترة لاحقة إلى نسخة فيلمية أنتجت خلال الحرب العالمية الثانية لتصبح شعبية مرة ثانية، هذه المرة لأنها أنتجت

¹ ميجان الرويلي/سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، المركز الثقافي العربي، لبنان/المغرب، ط4، 2007، ص140.

وتمت مشاهدتها بوصفها عرضاً وطنياً عن عظمة إنجلترا أثناء زمن الحرب»¹

هذا الانتقال بين الثقافة المركز وثقافة الهامش هو أهم نقاط أجندة الدراسات الثقافية، وأسباب وجودها في الآن ذاته، فهي تسعى إلى تسليط الضوء على ما تجاهلته المؤسسة الرسمية بدءاً بإعلانات كوكا وببسي، وروايات الرعب، وشخصية طرزان وبوكيمون وتأثيرها على الجمهور المتلقي، لذا تعرف موسوعة ويكيبيديا "الدراسات الثقافية" بأنها "حقل أكاديمي نشأ في أحضان النظرية الأدبية والنقد الأدبي الماركسي، وتعنى بالطبيعة السياسية للثقافة الشعبية المعاصرة، وهذا ما يميزوها عن الأنثروبولوجيا الثقافية "Cultural Anthropology" يركز الباحثون عن كيفية ارتباط الرسالة/ الوسيط بمسائل الايدولوجيا والطبقة الاجتماعية، والجنسية، والمواطنة (Nationality) والعرقية (Ethnicity) والجنسية، و/أو النوع"² أصبحت الدراسات الثقافية حقلاً أكاديمياً معترفاً به منذ مطلع الستينيات من القرن العشرين من خلال مركز بيرمنغهام للدراسات الثقافية المعاصرة (CCCS) الذي أسسه ريتشارد هوقارت (Richard Hoggart) عام 1964 وسرعان ما خلفه ستيوارت هال (Stuart Hall) الذي قدّم خدمات جليلة لترسيخ الدراسات الثقافية كنشاط أكاديمي معترف به دولياً.

في الحقيقة تعود جذور هذا الحقل المعرفي إلى سنوات الحرب العالمية الثانية حين كان رواد مدرسة فرانكفورت قلقين بشأن ما اعتبروه الآثار المدمرة للثقافة الجماهيرية وخاصة السينما والروايات الشعبية ولم نفترض الدراسات الثقافية بشكل مسبق بأن الثقافة الجماهيرية رديئة (...) ومن أهم أبعاد تحدي الدراسات الثقافية لأشكال التراث النخبوي المعتمد في مجال الأدب والفنون والثقافة هو الاتجاه من فكرة موحدة حول الثقافة إلى فكرة قائمة لأشكال التراث النخبوي المعتمد في مجال الأدب والفنون والثقافة هو الاتجاه من فكرة موحدة حول الثقافة إلى فكرة قائمة على تعددية حول ثقافات تحكمها محددات اجتماعات مثل الطبقة، والنوع، والعرق، والانتماءات

1 يوحنا سميث: ما النقد الثقافي؟ ت: أيمن بكر www.dhifaaf.com

Cultural Studies , www.wikipedia.org 2

العرقية»¹⁴ لذا لا عجب أن تجعل الدراسات الثقافية محور اهتمامها هوكتابات الملونين، وأدب المرأة، وثقافة الميديا والإعلانات مؤكدة علي دور هذه الأشكال الثقافية في تشكيل الوعي الجماعي وتأسيس الهرم القيمي والشبكة العلاقية بين الأفراد فيما بينهم من جهة وبين الأفراد والسلطة من جهة ثانية، ولم تتطور الدراسات الثقافية من فراغ بل راحت تبحث عن أسس نظرية تركز عليها مستفيدة من الماركسية، والكولونيالية، وعلم الاجتماع، وعلم النفس، والتاريخ، وعلم الاتصال، والدراسات الأدبية، وما بعد البنية، والإثنية معتمدة بطريقتها المرنة، وخاصيتها البينية، وإصرارها على نقض الحدود بين الحقول المعرفية المختلفة، ولن نقف عند مظاهر استفاد الدراسات الثقافية من كل هذه الحقول المعرفية لأنّ المقام لا يتسع لذلك، لذا سنكتفي بمثالين، وهما الماركسية والدراسات الأدبية.

الدراسات الثقافية والماركسية:

شكّل الفكر الماركسي الأرضية الصلبة للدراسات الثقافية التي استفادت كثيرا من كتابات باحثين وألّوسير وأنطونيو غرامسي، ووالتر بنجامين وغيرهم.

ففي سبعينيات القرن الماضي كانت الأحزاب السياسية التي تخدم الطبقة العاملة في تدهور مستمر مما جعل الملايين من عمال المصانع الانجليزية يصوتون لصالح مارغريت تاتشر، وراح الدارسون الثقافيون في مركز برمنجهام يبحثون عن أسباب التحول والولاء من حزب العمال إلى حزب المحافظين ووجدوا الجواب في كتابات أنطونيو غرامسي الذي شغلته الأسئلة نفسها حين لاحظ أن العمال والبسطاء والفلاحين الإيطاليين يصوتون لصالح الأحزاب التي تهضمهم حقوقهم، لذلك عدّ غرامسي «الثقافة وسيلة في الجهاز السياسي والاجتماعي للسلطة من هذا المنظور لا يستخدم الرأسماليون وسائل القمع المعروفة (السجن، الشرطة، الاضطهاد) فحسب لفرض سلطتهم بل أنهم يتغلغلون لثقافة العمال اليومية»²

تعنى الدراسات الثقافية حسب غرامسي بكشف آليات أدلجة الثقافة على يد الرأسماليين أو السلطة بما يخدم توجهها ومصالحها، فهي تركز عبر الثقافة قيم الخضوع والاستسلام، والتعلق بالربح السريع،

1 كرسيتين ولدن: الدراسات الثقافية، ت: هاني حلمي حنفي موسوعة كامبريدج في النقد الأدبي (القرن العشرين: المداخل التاريخية والفلسفية والنفسية) م9، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، 2005، ص248.

2 Cultural Studies , www.wikipedia.org

والنزعة الفردية، والاستغلال، والطبقية لذا نبّه ألتوسيومن جهته إلى خطورة الإيديولوجيا ورأى أنّ بإمكان الثقافة أن تعيد تشكيل علاقات الإنتاج الاجتماعية والاقتصادية بين الأفراد، وفي السياق ذاته شدّد غرامسي على "الحاجة إلى تعزيز وتطوير الثقافة البورليتيالية أي الطبقة العاملة، وأشار لاحتياجنا أن نري النخبة الثقافية بصورة سياسية ونحتاج كذلك لما أطلق عليه نخبة متقفة "راديكالية" عضوية"¹ كان لجهود الماركسيين دور في إضفاء صبغة أكاديمية على الدراسات الثقافية وجعلها حقلاً معرفياً يدرّس بين أسوار الجامعات بداء بمركز برجمنهام منذ عام 1964.

الدراسات الثقافية والأدب:

كانت علاقة الدراسات الثقافية بالأدب علاقة أخذ وعطاء فقد أخذت الدراسات الثقافية من الدراسة الأدبية منهجياتها وأدواتها المنهجية في التعامل مع المادة المدروسة وفي المقابل استفاد الأدب والدراسات الأدبية من معطيات الدراسات الثقافية، وإن كان الأدب في حدّ ذاته قد أصبح محل مساءلة من قبل الدارسين الثقافيين.

في البداية أجمع هؤلاء على رفض الحدود المصطنعة بين ما يسمى بالأدب الرسمي والأدب الهامشي وهذا ما أتاح الفرصة للرواية البوليسية وروايات الرعب والروايات الفيلمية "الروايات التي تحولت إلى نسخة فيلمية «لأن تكون موضوع النقد والدراسات والمساءلة بعد أن كانت قابعة في الظل مدى طويل، وتعتبر دراسات هيلر لرواية الرعب مثلاً حياً لتقاطع الدراسات الثقافية مع الأدب أو ما صار يسمّى لاحقاً النقد الثقافي فقد قدمت هيلر دراسات جيدة ومميزة لرواية فرانكشتاين، إذ فسّرت شعبيتها بكونها شكلاً هجيناً أونسخاً متنوعاً استطاع أن يضفي الإثارة على عاطفة الطبقة (...) وفي عملية استدلالها تقدّم قراءة مدهشة في إبداعيتها، إذ لا نقف ما توضحه فيها عند كيف يقع جدل ثقافي ما في خلفية نص أدبي وإنما نبين كذلك كيف يبدو هذا الجدل متصديراً ضمن النص حيث تبين هيلر كيف أنّ رواية فرانكشتاين هي رواية عن التعليم الجيد والتعليم السيء، وعن الكتب المفسدة والكتب الجيدة، بل يمكننا أن نلاحظ التحولات الراديكالية لرواية فرانكشتاين على مستوى الدلالة والوظيفة"².

1 يوحنا سميث: ما النقد الثقافي؟

2 المرجع السابق

لم تكتف الدراسات الثقافية بأن أدخلت بعض النصوص الهامشية إلى مركز النقد والتحليل بل راجعت أيضا وظيفة الأدب ومفهوم "الأدبية"، فلم يعد الأدب وحده وعاء الأفكار، والقيم، والأخلاق، والايديولوجيا، والأشكال العلائقية بين الأفراد والسلطة، بل صار يتقاسم هذه الوظيفة مع السينما، ووسائل الإعلام، والانترنت، والإعلانات وبهذا أصبح الأدب مجرد عملية إنتاجية تخضع لمعطيات الواقع وشروط الإنتاج، فقد وجهت الدراسات الثقافية اهتمامها إلى تحليل وشرح كيفية الكتابة وقراءتها وتوزيعها وتبادلها وتهدد الدراسة الأدبية بعد إعادة صياغتها على هذا النحو بأن تصبح جزءا من ذلك المشروع الفكري الأوسع (...) ويصبح الأدب مجرد بضعة نصوص بين نصوص أخرى¹.

لاشك أن هذه الاهتمامات الجديدة للدراسات الثقافية تشير إلى تأثيرها بعلم اجتماع الأدب وبالضبط أطروحات روبرت اسكاريت الذي اعتبر الأدب سلعة تتحكم فيها أبجديات العرض والطلب، وقوانين السوق والنشر والتوزيع، ولكن ما يهمني أكثر هونظرة الدراسات الثقافية للأدب مقارنة بغيره من الأنشطة الثقافية، فهي تراه جزءا من مشروع ثقافي أكبر تتبناه وتروج له، وتذيب الأدب في ثنانيا نسيجه، ولا أدل على ذلك من تغييرها مفهومها للأدبية التي كانت إلى عهد قريب حكرا على النصوص الأدبية الرسمية خاصة، فأفرغت الأدبية من محتواها الجمالي الثابت لتجعلها مجرد تصنيف اجتماعي متغير قابل للتحويل والتמיד والتقليص حسب متغيرات الواقع فلا يزال رواد الدراسات الثقافية يتجادلون حول "ما الذي يشكل المعيارية الأدبية أي قائمة الشرف المكونة من الكتب العظيمة تلك التي تم الاتفاق عليها ذات مرة فيما مضى، على أية حال لا يفعلون ذلك بإضافة كتب وأفلام وأعمال تلفزيونية إلى قائمة النصوص القديمة التي - افتراضا - يجب على كل شخص مثقف أن يقرأها، ولا يفعلون ذلك أيضا باستبدال نوع من المعيارية الثقافية المضادة بهذه القائمة، أنهم بالأحرى يقارعون المعيارية الأدبية القائمة عن طريق نقد فكرة المعيارية نفسها، يريد النقاد الثقافيون أن يبعدونا عن التفكير في أعمال محددة بوصفها أفضل الأعمال التي أنتجتها ثقافة معينة²".

1 كرسيتين ولدن: الدراسات الثقافية، ص252.

2 يوحنا سميث: ما النقد الثقافي؟

يرى النقاد الثقافيون أن الأدبية صفة متغيرة، وأي محاولة لقبولتها في إطار سابق هوتجن على المعرفة والذوق في آن واحد، لذا لا عجب أن التصنيف المصطنع بين "أنواع" الثقافة يحرمانا من تلمس الجماليات الموجودة في الإعلان بقدر ما تحرمانا من مقارنة العناصر الدعائية في النصوص الأدبية.

مأخذ الدراسات الثقافية:

لاتزال الدراسات الثقافية حقلا فتيا لم يمر قرن على وجوده والاعتراف به رسميا وأكاديميا، لذا فهو في مرحلة تطوّر وتشكّل يحاول أن يصطنع لنفسه مناهجه، وأدواته، ومنطقه، ومنطقته مستفيدا في ذلك من حقول معرفية كثيرة - سبق الإشارة إليه. لذا لا عجب أن تكثر الانتقادات التي توجه للدراسات الثقافية تصل في بعض الأحيان إلى حد تجاهلها أو عدم الاعتراف بها.

ومن أهم النقاد الذين تعرضوا بالنقد للدراسات الثقافية نذكر هارولد بلوم "Harold Bloom" ونيري إيجلتون «(Eaghton Thierry)» و"بيير بورديو" (Pierre Bourdieu).

يهتمّ السوسيولوجي بيير بورديو بالسينما، والمتاحف، والآداب الحديثة، وفن التصوير، وهي اهتمامات تقاسمه فيها الدراسات الثقافية التي يعيب عليها افتقارها للمنهجية العلمية الصارمة التي يجب أن تتوفر في أيّ حقل معرفي، أما إيجلتون فهو يرى "أنّ الدراسات الثقافية شأنها شأن الدراسات الأدبية يتجاوز طموحها النظري ممارستها التطبيقية لذا فهي لا تستطيع أن تتعاطى مع المسائل الرئيسية في الحياة"¹ إذا كانت انتقادات بورديو جزئية وذات أهداف تقويمية بناءة، فإن انتقادات هارولد بلوم كانت لاذعة واستفزازية، بل وصل به الأمر إلى حدّ دعوته إلى حذف الدراسات الثقافية من قائمة البرامج الجامعية لأنها في نظره تعتبر الدراسات الأدبية أداة للتوظيف، والحصول على مكانة في المجتمع وذلك بدل أن تتمي الذوق الجماهيري لكي يرى "الجمال" في الأعمال الأدبية الجميلة"²

الدراسات الثقافية المقارنة (Comparative Cultural Studies):

تفرّع عن الدراسات الثقافية فرع جديد يدعى "الدراسات الثقافية المقارنة" وقد روج لها ستيفن توتوسي الذي عرفها بأنها «مقارنة سياقية تتناول الثقافة بمختلف مكوناتها وآليات إنتاجها، ويرتكز إطارها

1 Cultural Studies , www.wikipedia.org

2 Cultural Studies , www.wikipedia.org

النظري والمنهجي على مجموعة من المبادئ المستعارة من الأدب المقارن، والدراسات الثقافية، ومن مجموعة الأسس المرتبطة بالبنوية، ونظريات الاتصال، والأنظمة، والثقافة، والأدب، وتهتم الدراسات الثقافية المقارنة التي عادة ما تركز على كيفية تكوين الظاهرة أكثر من الاهتمامات بالمستوى أو الموضوع بالجوانب التطبيقية إلى جانب المنطلقات النظرية والمنهجية"¹

يتسم هذا التعريف بالعموم والشمولية كما أن توتوسي قد انطلق من كتابه (الأدب المقارن النظرية والتطبيق والمنهج 1998) ليستعير منه أهم مبادئه المنهجية ليؤسس من خلاله كتابه «من الأدب المقارن إلى الدراسات الثقافية المقارنة» 1999 «وكان ناقما آنذاك على النقاد الثقافيين مثهما إياهم بالسطوع على أهم مباحث الأدب المقارن كالحكايات الشعبية والأساطير ليضمّنها أبحاثهم في الدراسات الثقافية ولكن تومفيرك أستاذ الأدب المقارن في سلوفينيا يهاجم توتوسي ويتهمة في دراسته المعنونة بـ «الأدب المقارن في مواجهة الدراسات الثقافية المقارنة» بأنه أفرغ الأدب المقارن من طبيعته الأدبية، إذ اكتفى بتوتوسي بتحويل كلمة «أدب» إلى كلمة «ثقافة» لجعل من المبادئ التي وضعها لتحديد الأدب المقارن أساسا للدراسات الثقافية المقارنة، بالإضافة إلى ذلك يؤكد فيرك أن الأبحاث التي قام بها توتوسي في إطار ما يسميه الدراسات الثقافية المقارنة تدخل كلها في الواقع ضمن ميادين البحث في الأدب المقارن"²

تتأكد لنا هذه الفكرة حين نتذكر أهم مباحث الأدب المقارن كما تصوّرها المدرسة الأمريكية، ونعني علاقة الأدب بالفنون (كالرسم والنحت والسينما)، والعلوم الإنسانية (كعلم النفس، وعلم الاجتماع والميثولوجيا والإنترولوجيا) والفلسفة وعلوم التقنية (الإعلام الآلي والرياضيات) بالإضافة إلى الأساطير والدراسات الترجمية، ولا تكاد الدراسات الثقافية المقارنة تزيد شساعة واحتواء أكثر من هذه الموضوعات، ورغم ذلك جاءت الدراسات الثقافية المقارنة لتطلق رصاصة الرحمة في جسد الأدب بعد أن حولته إلى مجرد وعاء كغيره من النشاطات الثقافية يحمل قيم وتقاليد ومعارف العصر، وبعد

1 مسعود عمشوش: من الأدب المقارن إلى النقد الثقافي المقارن، تحولات الخطاب النقدي المعاصر، مؤتمر النقد الدولي، الأردن، 2006، دار الكتب الحديث، الأردن، 942.

2 مسعود عمشوش: من الأدب المقارن إلى النقد الثقافي المقارن، ص 944.

أن غيرت مفهوم الأدبية، ووسعت دائرة الاهتمام من التركيز على النصوص فحسب إلى الانشغال بعملية الكتابة والنشر، والتوزيع، والجمهور المتلقي وهذا ما جعل كثيرا من النقاد ينادون بموت الأدب بعد أن نادى غيرهم منذ زمن بموت المؤلف ثم بموت النص.

وبعد، ما موقف النقاد العرب من هذا الحقل المعرفي المستحدث؟ كيف استقبلوه؟ وكيف تعاملوا مع المصطلح وإلى أي مدى ساهموا في إثراء الموضوع تنظيرا وتطبيقا؟.

الدراسات الثقافية عند العرب:

عرفت الدراسات الثقافية في أغلب الكتابات النقدية العربية باسم النقد الثقافي، وقليلون من النقاد العرب من ناقش علاقة الدراسات الثقافية بالنقد الثقافي وكأنهم قد حسموا الأمر بأنهما وجهان لعملة واحدة، ويرى مؤلفا "دليل الناقد الأدبي" أن النقاد العرب قد اشتغلوا بالحديث والكتابة عن الثقافة بمفهومها الواسع محاولين استكشاف مقومات الثقافة العربية «فما يكتبه طه حسين في كتاب "في الشعر الجاهلي" أوفي "مستقبل الثقافة في مصر" نقد ثقافي مثلا ونجد كذلك كثيرا مما نشره العقاد وجماعة الديوان، وبعض المهجرين ثم نقد أدونيس في (الثابت والمتحول) بل وكتابات بعض الباحثين المعاصرين "كعبد الله العروى ومحمد عابد الجابري وطه عبد الرحمن وهشام جعيط، وفهمي جدعان، وعلي حرب، ومحمود أمين العالم (...) كما يندرج ضمن النقد الثقافي ما أسماه هشام شرابي بالنقد الحضاري"¹.

ويعتبر مؤلفا الدليل أن الانطلاقة الحقيقية للنقد الثقافي عند العرب تبدأ مع عبد الله الغدامي في كتابه الشهير (النقد الثقافي قراءة في الأنساق الثقافية العربية "2000") مميزين بين الدراسات الثقافية والنقد الثقافي معتبرين الثانية حركة طارئة على الأولى.

وقبل أن يؤلف الغدامي كتابه «النقد الثقافي» الذي يعد كتابا تأسيسيا ورياديا في الثقافة العربية فإن الباحثين المقارنين العرب أول من أشاروا إلى الدراسات الثقافية فهذا حسام الخطيب يعتبرها منافسا حيويا للأدب المقارن، كما أوضح ذلك في ورقته التي قدمها في أعمال ملتقى (قضايا الأدب المقارن) الذي انعقد بالقاهرة عام "1995 حيث أشار إلى أن الدراسات الثقافية لا تنتظر بعين الرضي إلى الأدب المقارن "إذ تعتبره دراسة شكلية خارجية تحتاج إلى مضمون جاد

¹ ميجان الرويلي/ سعد البازعي: دليل الناقد الأدبي، ص 309.

فكري واجتماعي وربما ترشّح نفسها للحلول محله واحتوائه، وتتّعش هذه الدراسات منذ نهاية التسعينات وتخوض مغامرات تحليلية وربطية واسعة، ولكنها مازالت تقوم على جهود أفراد جادّين يجمع بينهم التآلف العام، وإن لم تنتظم بعد في إطار نظري متماسك¹

يزداد حسام الخطيب حماسا للدراسات الثقافية حين يؤكد على أهميتها في ثقافتنا العربية لأنها تراهن علي قضايانا المصيرية كثنائية «الأنا والآخر» «و» الأصالة والمعاصرة "ولأنها من الممكن أن تثمر نتائج مثيرة، إذ اتفقت مع انشغالات الأدب المقارن، وإن كانت تحاول أن تحل محله كما أشار إلى ذلك منذ قليل وهذا يعني أن حسام الخطيب لا يقف موقفا ضديا من الدراسات الثقافية وإن كان ينتصر بطبيعة الحال للأدب المقارن حيث يرى أنه يجدر به «أن يظهر المزيد من الاهتمام بالقضايا الإنسانية الكبرى التي تشغل ساحة الدراسات الأدبية الجديدة مثل مضاعفة التصدي للمركزية الأوروبية والغربية "...» ومكافحة التمييز العنصر الثقافي بكل أشكاله ومتمثلاته والحلول دون انقسام العالم ثقافيا إلى طبقة فائقة الغنى والموارد الطبيعية ومقابلها طبقة تحت حزام الفقر، وكشف الغطاء عن الثقافات المهضومة وتهوية تجارها، والإفادة من جميع ثقافات العالم، يصعب اتهام الأدب المقارن بأنه مقصّر في هذا المجال، ولكن يصعب كذلك اعتباره رائدا، والمطلوب من الأدب المقارن ألا يكون أقلّ من تلك الأنساق الأدبية الأخرى تركيزا على هذه الموضوعات الإنسانية².

إذ كان حسام الخطيب قد تحدث عرضا عن الدراسات الثقافية في ثنايا كتاباته المقارنة فإن زميله المقارن عز الدين المناصرة يفرد لها كتابا مستقلا بكتاب «النقد الثقافي المقارن» قسمه إلى أحد عشر فصلا، سنذكر عناوينها لنعرف مساحة النقد الثقافي ضمن هذا الكتاب:

الفصل الأول: تفاعل المراكز والأطراف

الفصل الثاني: التفاعل المتبادل بين اللغات

الفصل الثالث: بيان الأدب المقارن

الفصل الرابع: الأدب المقارن في النصف الثاني من القرن العشرين

الفصل الخامس: النقد المقارن في ألمانيا

الفصل السادس: ما بعد نظرية الأدب

1 حسام الخطيب: الأدب المقارن على مشارف القرن الواحد والعشرين، أعمال ملتقى قضايا الأدب المقارن (تحرير أحمد عثمان)، القاهرة، 1998 ص 46.

2 مسعود عمشوش: من الأدب المقارن إلى النقد الثقافي المقارن، ص 944.

الفصل السابع: بدايات الأدب المقارن في البلدان العربية

الفصل الثامن: الأدب المقارن في الجامعات العربية

الفصل التاسع: تطبيقات في النقد المقارن

الفصل العاشر: النص.. والآخر

الفصل الحادي عشر: وثائق الأدب المقارن¹

نلاحظ أنّ النقد الثقافي المقارن شغل الفصل السادس فقط من الكتاب، وقد عالج فيه الكاتب أطروحات ثقافية عامة، لا تكاد تخرج عن تعريف النقد الثقافي، وظروف نشأته،.. وذلك ضمن عناوين فرعية هي: 1- إيزابير غوالنقد الثقافي 2- الإمبريالية والثقافة: قضية مجلة حوار اللبنانية (1962-1967) 3- الإمبريالية والثقافة: المنقون والحرب الباردة الثقافية 4- النسوية والنقد النسوي.. وما بعد النسوية

5- خلاصة: تفكيك جدلية الثقافي والأدبي.

لم يتجاوز الكاتب ما هو متناثر في الكتابات الغربية التنظيرية، أما باقي الفصول العشر، فظلت تدور في فلك الأدب المقارن في شقه التقليدي (المدرسة الفرنسية) بما في ذلك الفصول التطبيقية، فقد اختار الباحث موضوعات بليت بين أقلام المقارنين العرب على نحو: (بجماليون توفيق الحكيم وبرنارد شو)، (الموشحات وشعر التروبادور)، (أثر وليام فولكنر في (ما تبقى لكم) لغسان كنفاني) وغيرها من المواضيع التي تطارحها المقارنون العرب منذ خمسينيات القرن العشرين. لم نعرّ في كتاب المناصرة على دراسة تطبيقية حول الأنشطة الثقافية "الدنيا" كالإعلانات، والسيناريوهات التلفزيونية، والثقافة الشعبية كما تدعو بذلك "الدراسات الثقافية" رغم أنّ الأدب المقارن في شقه التجديدي (المدرسة الأمريكية) دعا إلى انفتاح الدراسة الأدبية على الفنون وباقي الحقول المعرفية.

بدا مصطلح "النقد الثقافي المقارن" مجرد بديل اسمي / شكلي لمصطلح الأدب المقارن، ولا أدلّ على ذلك من الفصل الحادي عشر الذي جاء توثيقاً لمنجزات المقارنين طوال نصف قرن من الزمان.

وإذا كان المناصرة أغرق في الأدب المقارن على حساب النقد الثقافي المقارن، فإنّ زميله المقارن الجزائري حفناوي بعلي قد أغرق في الدراسات الثقافية على حساب النقد الثقافي المقارن في كتابه "مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن" حيث طرح موضوعات النقد الثقافي

1 عز الدين للمناصرة: النقد الثقافي المقارن، دار مجدلاوي، عمان، ط1، 2005 (الفهرس)

/الدراسات الثقافية موضوعا تلواآخر بتفصيل واف، ودفع ببعض المصطلحات الجديدة إلى الواجهة على غرار النقد الأيكولوجي الذي "يناقش أخلاقيات البيئة، والواجبات، والضمير البيئي، وتقديم جملة من الأهداف الوجدانية (...). تنمية الاتجاه نحوالرؤية المستقبلية للآثار البيئية على الأخلاق بالأنظمة البيئية"¹، لكن في المقابل ظلّ الكتاب متقلّ بمصطلحات كثيرة ملغزة لم يشفعها الباحث بتعريف واف، ومن ذلك: الأنترولوجيا اللغوية الرامزة المقارنة، التاريخانية الجديدة، دراسات سياسة العلوم، وغيرها... والأهمّ من هذا أنّ الباحث لم يتطرق إلى مباحث النقد الثقافي المقارن التي تميّزه عن النقد الثقافي، بعبارة أخرى بدت كلمة "مقارن" دخيلة على عنوان الكتاب ومحتواه، بل جاءت طفيلية ولا محلّ لها من الإعراب..

عبد القادر الرباعي / تحولات النقد الثقافي:

كتب الدكتور عبد القادر الرباعي مؤلفا بعنوان "تحولات النقد الثقافي" لكن حين نتصفح الكتاب نجد العنوان يغطي الفصل الأول من الكتاب فقط، فقد عالجت الفصول الثلاثة الأخرى قضايا (التأويل، دراسة في المصطلح)، (قراءة في لغة الاختلاف النقدي)، (القارئ الضمني)

وبالنسبة إلى فصل (تحولات النقد الثقافي) فقد عالج فيه الكاتب تاريخ ظهور النقد الثقافي ضمن دعوات صاحبة تنادي بموت الأدب لأنّه غدا سلعة كاسدة لا تلقى رواجاً «قال أحدهم عام 1982 واسمه (ليس فيدر) لست أسفا لأن أرى أدب الثقافة العالمية يهوى من عليائه، فيموت ثمّ ألف كتابا يستخفّ فيه كلّ ما جاء به الأدب، متسائلا: ماذا كان الأدب؟»، وهذا تيري إيجلتون صاحب كتاب "نظرية الأدب" الذي ألفه عام 1989، قال بالحرف (لقد بدأت هذا الكتاب بمحاولة تبيان أنّ الأدب ليس موجودا، فكيف بالنظرية الأدبية أن توجد إذن؟!)"²

ويشرح الرباعي وجهة نظر الغربيين بأدلة واقعية، فالعالم تشغله قضايا الرؤوس النووية الحربية، وتغيرات المناخ، ولغز موت مايكل جاكسون، وحفلات مادونا - وكلّها تقدّم طرحا ثقافيا معينا - أكثر مما تشغله المرشّحين لجائزة نوبل للأدب لهذا العام، أضف إلى ذلك أنّ المنشغلين بالأدب قلة قليلة من الأكاديميين والطلبة، فمن باب

1 حناوي يعلى:مدخل إلى نظرية النقد الثقافي المقارن، منشورات الاختلاف(الجزائر)، الدار العربية للعلوم - ناشرون (لبنان)، ط1، 2007، ص 17.

2 عبد القادر الرباعي: تحولات النقد الثقافي، دار جرير للنشر والتوزيع، 2008، عمان، ص 08.

الديمقراطية، علينا أن نغلب اهتمام الأغلبية على الأقلية، لذا يأتي النقد الثقافي بديلاً طبيعياً للنقد الأدبي - كما يشرح الرباعي - مستفيداً من مفهوم "الثقافة" العائم الذي يستوعب كل نشاط فكري يمارسه الإنسان. يقدم الرباعي لمحة تاريخية مكثفة لتاريخ النقد الثقافي مركزاً على جهود رواده بدءاً بويليامز (Williams) مروراً بأنثوني إستهوب (Antony Easthope) الذي ركّز على الثقافة الشعبية، فأدب النخبة قد مات - في رأيه - وحلت محله ثقافة العموم، ولا أدل على ذلك من أن الروايات الشعبية تحقق مبيعات خيالية مقارنة بالكتابات الأكاديمية الرصينة، كما توقف الرباعي مطولاً مع أطروحات تيري إيجلتون الذي اتخذ موقفاً عدائياً وساخراً تجاه الأدب، ودعا إلى أن تحل الدراسات الثقافية محله، ونبه الرباعي إلى تناقضات إيجلتون ونزوعه اللاشعوري نحو الأدب "الأمر الغريب في مشروع إيجلتون هو ما نلمسه من تناقض أحياناً في بعض أطروحاته، فمن ذلك ما رأيناه من إلحاحه الثابت على موت الأدب لمصلحة الثقافة، لكنه مع ذلك يؤكد أهمية اعتماد الدب في تعليم الأطفال خاصة لكونه مثالياً، ولما فيه من طوباوية (...) ولعلّ أوضح مثال على أهمية الأدب الكامنة في لاشعوره خاتمة الكتاب الذي عبّر عن كلّ هذا الجديد الذي طرحه بقطعة أدبية خالصة دون أن يدري أنّه بها أثبت أنّ الأدب حيّ في وجدانه"¹.

كما يستعرض الرباعي أفكار توماس كوهين (Thomas Kuhn) الذي رأى أنّ طغيان الميديا وثقافة الصورة (التلفزيون، الفيديو، الأجهزة السمعية البصرية...) خلق صعوبة في القراءة لكل شيء مكتوب بما في ذلك الأدب.

قدّم الرباعي مسحة تاريخية لمنعرجات الدراسات الثقافية عند الغرب مشيراً إلى مواقف روادها من الأدب التي تراوحت بين التطرّف والاعتدال وختم بحثه بإصراره على أنّه من أنصار الأدب لأنّ الأدب جزء من تكويننا الإنساني ولأنّ المؤسسة الأدبية مصرّة على الثبات والمقاومة، ولا يفوت الرباعي الفرصة للتأكيد على أنّ النقد الثقافي مازال فرعاً حديثاً لم يشتدّ عوده بعد، ولم تكتمل ملامحه، لذا لا عجب أن يشتكي من فوضى المنهجية، وضبابية الرؤية، لذا عدّ التأثير به الدعوة إلى إحلاله محلّ النقد الأدبي موقفاً متسرّعاً، ولا يفي الرباعي أنّه يقصد بإشارته الغامزة عبد الله الغذامي حين ذكره

1 عبد القادر الرباعي: تحولات النقد الثقافي، ص 26.

صراحة، ونبهه إلى أن تسرع في تبني مقولات النقد الثقافي والتحمس الشديد له في كتابه الشهير "النقد الثقافي" الذي أخرنا الحديث عنه رغم أهميته وريادته بل لهذه الأسباب أجلناه حتى نقف معه مطولا

عبد الله الغدامي / النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية:

لا شك أن مصطلح "النقد الثقافي" يستدعي إلى الذاكرة النقدية العربية الناقد السعودي عبد الله الغدامي الذي يعدّ رياديا في هذا المجال من خلال كتابه النقد الثقافي: قراءة في الأنساق الثقافية العربية (2000)، ولعلّ أول نقلة نوعية قام بها الغدامي مقارنة بأقرانه العرب هو جمعه بين التنظير والممارسة، فبعد أن عرّف بالنقد الثقافي، واستجلى ذاكرة المصطلح تاريخيا ونقديا طبق مقولات النقد الثقافي على بعض "أشكال" الثقافة النقدية العربية باحثا عما يسميه "الأنساق".

اصطنع الغدامي لمشروعه الثقافي - وهو يعني تطبيق مقولات النقد الثقافي على بعض الثقافة النقدية العربية- مصطلحات جديدة من اجتهاده الخاص، وأهمها: عناصر الرسالة (الوظيفة النسيقية) - المجاز (المجاز الكلي) - التورية الثقافية - نوع الدلالة - الجملة الثقافية - المؤلف المزدوج.

يؤكد الغدامي أن هذه المصطلحات ليست منبثقة من العدم بل هي انعكاس لقناعته بضرورة الانتقال من "الأدبي" إلى "الثقافي"، لذا جاءت هذه المنظومة الاصطلاحية نقلة نوعية من النقد الأدبي إلى النقد الثقافي، وسنعرّف باختصار هذا الجهاز الاصطلاحي حتى نتمكن من مناقشته:

عناصر الرسالة النسيقية:

يشير الغدامي إلى نموذج جاكبسون اللغوي الذي يتكوّن من ستة عناصر هي: المرسل والمرسل إليه، والرسالة، التي تتحرّك عبر السياق والشفرة، ووسيلة كلّ ذلك هي أداة الاتصال، ويعيب الغدامي على نموذج جاكبسون تركيزه على "الأدبية"، لذا يقترح عنصر سابع، وهو "النسق" (الوظيفة النسيقية)، وهو مصطلح جوهري في مشروع الغدامي الثقافي، لذا فهو لا يعرفه بقدر ما يشرح خصائصه، فهو «يتحدّد عبر وظيفته وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسيقية لا تحدّد إلا في وضع محدّد ومقيّد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر، والآخر مضمر، ويكون المضمر ناقضا وناسخا للظاهر، ويكون ذلك في نص واحد أو ما في حكم النص الواحد، ويشترط في النص أن يكون جماليا وأن يكون جماهيريا،

ولسنا نقصد الجمالي حسب الشرط النقدي المؤسساتي، وإنما الجمالي هوما اعتبرته الرعاية الثقافية جميلاً¹.

ويوضح الغدامي أنّ الوظيفة التّسقيّة تتحدّد عندما يكون هناك نسقان يحدثان معاً، ويكون أحدهما مضمّر وهونقيض ومضاد للعلني، فإن لم يكونا متناقضين فإنّهما سيخرجان من دائرة النقد الثقافي، كما يؤكّد الغدامي على النص لا بدّ أن يكون جمالياً، لأنّ الجمال هو الوسيلة الخطيرة والخادعة لتمرير أنساق مفخخة، ويلجّ الغدامي على أن يكون النص جماهيرياً، يحظى بقبول الجماعة حتى لا تقع في فخّ الاستثنائي، والشاذ، والخاص.

كما يؤكّد الكاتب على أنّ "النسق هنا من حيث هودلالة مضمرة، فإنّ هذه الدلالة ليست مصنوعة من مؤلف، ولكنّها مكتبة ومنغرسّة في الخطاب، مؤلفتها الثقافة، ومستهلكوها جماهير اللغة من كتّاب وقراء، (...) والأنساق الثقافية هذه أنساق تاريخية، أزلية، وراسخة، ولها الغلبة دائماً، وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتج الثقافي المنطوي على هذا النوع من الأنساق"²

يشبه النسق - في رأيي - مفهوم اللاوعي الجمعي الذي روّج له كارل يونغ في مدرسة التحليل النفسي، إذ يتقاسمان فكرة الحضور الجماعي، والتغلغل اللاواعي، والتراكم الزمني، أي امتداده وتناقله عبر الأجيال، ومع ذلك أخذ على هذا المصطلح (النسق) غموضه وعموميته خصوصاً أنّ الغدامي يكثر من الاشتقاق منه، لذا فلا يزال هذا المصطلح يثير إلى حدّ الآن تساؤلات النقاد العرب، ويدفعهم إلى أن يضعوا له عشرات التأويلات..

المجاز الكلي:

ينطلق الغدامي من مفهوم المجاز البلاغي الذي يدور حول الاستعمال المفرد للفظ أو الجملة ليؤسس مجازاً كلياً يدور حول الخطاب الذي «يحمل بعدين أوليين أحدهما حاضر وماتل في الفعل اللغوي المكشوف وهو الذي نعرفه عبر تجلياته العديدة الجمالية وغيرها (...) وبعد آخر يمسّ (المضمّر) الدلالي للخطاب، هذا المضمّر الفاعل والمحرك الخفيّ

1 عبد الله الغدامي: النقد الثقافي، قراءة في الأنساق الثقافية العربية، المركز الثقافي العربي ط1، المغرب /لبنان، 2000، ص77.

2 عبد الله الغدامي: النقد الثقافي، ص77.

الذي يتحكم في كافة علاقاتنا مع أفكار التعبير وحالات التفاعل وبالتالي فإنّه يدير أفعالنا ذاتها، ويوجّه سلوكياتنا العقلية والذوقية¹.

ويعدّ "المجاز الكلي" خطوة متقدّمة أخرى للانسلاخ عن النقد الأدبي والاتجاه صوب النقد الثقافي لأنّه يمكّننا من كشف الازدواج الدلالي الخطير الذي يتلبّس خطاباتنا الثقافية متفّعا ببرقع الجمالي والبلاغي. التورية الثقافية:

تعني التورية بلاغيا احتواء المفردة أو الجملة معنيين أحدهما قريب والآخر بعيد، وعادة ما يكون هذا الأخير هو المقصود، ويعيب الغذامي على هذا المفهوم البلاغي دورانه في مجال الوعي لذلك يقترح مفهوم "التورية الثقافية" لتدلّ على حال الخطاب إذ ينطوي على بعدين أحدهما مضمر ولا شعوري، ليس في وعي المؤلف، ولا في وعي القارئ، هو مضمر نسقي ثقافي، لم يكتبه كاتب فرد، ولكن انوجد عبر عمليات من التراكم حتى صار عنصرا نسقيًا، يتلبّس الخطاب ورعيّة الخطاب من مؤلفين وقراء² الدلالة النسقية:

يظلّ الغذامي يمارس لعبة ثنائية (المضمر/المعلن) سواء تعلّق الأمر بالمجاز أو التورية أو حتى الدلالة، وهذه الدلالة ليست معنى مبتكرا، وما يستحدثه الغذامي هونوع ثالث من الدلالة يدعوه "الدلالة النسقية" التي تعزّز مشروع إضافة العنصر السابع (النسق)، لذا فهي ترتبط في علاقات متشابكة نشأت مع الزمن لتكون عنصرا ثقافيا أخذ بالتشكّل التدريجي إلى أن أصبح عنصرا فاعلا، ولكن بسبب نشوئه التدريجي تمكّن من التغلغل غير الملحوظ، وظلّ كامنا هناك في أعماق الخطابات³

تتميّز الدلالة النسقية بقدرتها على الاختباء والكمون تحت طبقات "الجمالي"، وتنسّم بتجدرها المتغلغل في أعماق تفكيرنا وقدرتها على التحكم في نظرتنا للأشياء..

الجملة الثقافية:

إذا كانت الدلالة الصريحة تستند على الجملة النحوية، والدلالة الضمنية تستند إلى الجملة الأدبية، فإنّ الدلالة النسقية تستند إلى ما يسمّيها الغذامي "الجملة الثقافية"، ويعرّفها بأنّها «مفهوم بمسّ الذبذبات

1 م، س، ص 69.

2 م، س، ص 76.

3 م، س، ص 72.

الدقيقة للتشكّل الثقافي الذي يقرن صيغته التعبيرية المختلفة¹، ويغلب على هذا التعريف الغموض والإيهام، ولكنّ الغدامي يعد بأن يشرح الغوامض في الجانب التطبيقي من الكتاب.

المؤلف المزدوج:

هناك مؤلفان - في نظر الغدامي - المؤلف المعهود بمختلف تصنيفاته (الضمني، والنموذجي، والفعلي..)، ومؤلف مضمّر هو الثقافة ذاتها، بعبارة أخرى تصبح "الثقافة نوعاً من المؤلف النّسقي كما هو الشأن في حركة النّسق ومفعوله المضمّر"². لذا يغدو المؤلف المعهود نتاجاً طبيعياً للمؤلف المضمّر.

يؤخذ على جهاز الغدامي الاصطلاحي غموضه وضبابيته وضعف قوته الإقناعية، فلا نكاد نلمس فرقاً حقيقياً بين التورية البلاغية والتورية الثقافية، أوبين الدلالة الضمنية والدلالة النّسقية، أضف إلى ذلك أنّ كلّ هذه المفاهيم تستند إلى مفهوم "النّسق" وهو في طرح الغدامي غامض ومتذبذباً لذا سهر النقاد جرّاه يختصمون، لذا وصفه عبد النّبي إصطيف بأنّه "عقب أخيل" الذي حول دون انطلاق مشروع الغدامي الثقافي بديلاً عن النقد الأدبي، كما يعيب إصطيف على الغدامي إجراءات إقحامه على نموذج رومان جاكبسون، "فكيف يمكن لناقد أن يضيف عنصراً جديداً على نموذج اختطّه عالم لغة مقارن، خبير بعدد من اللغات، والتقاليد الأدبية والنقدية دون أن يفكر في عقابيل هذه الإضافات"³

هذا ما يمكن قوله - قدر ما يسمح به هذا المقام - حول الجانب الاصطلاحي /التنظيري لكتاب الغدامي، أمّا عن الجانب التطبيقي فذلك بداية حديث آخر.

قرأ الغدامي شعر عمر بن كلثوم والفرزدق وجريّر وأبي تمام وأدونيس وكتابات ابن المقفع والجاحظ والتوحيدي قراءة ثقافية أوصلته إلى نتائج ما كان ليصل إليها - كما اعتقد - لواكتفى بالنقد الأدبي، ومن تلك النتائج أنّ الحداثة العربية حادثة رجعية، وأنّ الشعر العربي قد جنى على الشخصية العربية، وأنّ الثقافة العربية منبت خصب لمفهوم "الفحل" و"الطاغية"، وأنّ.. وأنّ.. وأنّ..

1 م، س، ص 77.

2 م، س، ص 79.

3 عبد النّبي إصطيف /عبد الله الغدامي / نقد ثقافي أم أدبي، دار الفكر، سوريا، 2008، ص 195.

وفي الحقيقة لم تكن هذه نتائج وصل إليها الباحث في خاتمة كتابه الذي تجاوز الثلاثمائة صفحة بقدر ما كانت فرضيات ونتائج أولية وضعها الكاتب في مقدمة كتابه وبدايات فصوله وراح يبحث لها في المدونة العربية الأدبية - قديمها وحديثها - ما يعزّز طرحه ويدعم حججه، لذا جاءت شواهد انتقائية، ومبتسرة من سياقها «وذلك بحثاً عن الجملة الثقافية التي لا يستخرجها الناقد من سياقها الأدبي، وإنما من انطباعاته هو حول القيم السلبية التي يتضمنها الخطاب الأدبي وغير الأدبي، وذلك على الرغم من محاولته إثبات العكس»¹

وحتى النتائج التي وصل إليها الغدامي من خلال قراءته النقدية /الثقافية محلّ نظر وتساؤل، فقول الغدامي أنّ المديح العربي شعر تكسبي هي مقولة معروفة في معظم الثقافات فطالما ضمّ البلاط الروماني، والإنجليزي، والفرنسي شعراء جوالين تكسبيين، كما أنّ طغيان "الفحولة" على معظم أنشطتنا شيء يعرفه الجميع لكثرة ما ردّد في الثامن من مارس من كلّ عام..

أراد الغدامي أن يحرّر مفهوم "الأدبية" من النقد المؤسساتي الرسمي الذي يقصرها على الأدب - شعرا ومسرحا ورواية - ليربطها بثقافة العموم والمهمّشين، لكن الغدامي ضيق مفهوم "الأدبية" أكثر مما كانت عليه، إذ كاد أن يقصرها على الشعر فحسب دون باقي الأجناس الأدبية، إذ أعطاه دورا كبيرا في رسم سلوكنا العربي مما أوقعه في تناقض حين عاب على أدونيس تمرّكه في الشعر ليقع هونفسه في المنزلق ذاته مما جعله يصدر أحكاما تعميمية، «وهذا يؤكّد وجود مغالطات منهجية تخصّ قراءة الواقع نفسه، وتظهر افتقار الغدامي أدوات البحث المنهجي الذي تفترضه القراءة الاجتماعية..»³⁰

يبقى كتاب الغدامي محاولة جادة ومثيرة للجدل والمناقشة، فبعد مرور عقد من دعوته لمشروعه الثقافي، لا تزال المؤتمرات والندوات تعقد، ورسائل الماجستير والدكتوراه تحضّر لمناقشة مشروعه والوقوف على مكان من قوته وضعفه.

الخاتمة:

لا يزال النقاد العرب يقاربون النقد الثقافي بكثير من الحذر والحرص، فهذا المجال لا يزال حديثا وضبابيا حتى في بيئته الغربية، لذا جاءت كتابات

¹ رفيف رضا صيداوي: النقد الثقافي للغدامي بين الممارسة والتطبيق، الجزيرة الثقافية، 12/03/2007،

ع190، ص12

النقاد العرب متشابهة ومكرورة تدور كلها حول نشأة النقد الثقافي ودور مركز برمنجهام، وفروع الدراسات الثقافية وما قاله ويليامز، وهوقارت وغيرهما من الرواد أمّا الجانب التطبيقي فقد أحجم معظم النقاد العرب عن الخوض فيه، وذلك لتحرجهم في التعاطي مع "الثقافة الدنيا" كالإعلانات التلفزيونية، والسيناريوهات، والأغاني الشبابية، وهي موضوعات قد تثير حفيظة النقاد المتحفظين، وقد تثير سخريّة البعض الآخر، فلا أعتقد أنّ تقديم مداخلة في قسم الأدب العربي حول إشهارات « Fair and Lovely» أو "Lux" أو "دور أغاني تامر حسني أونانسي عجرم في لغة الشباب" قد تمرّ آمنة دون أن تعرّض صاحبها للتعليقات والسخرية..